"مدخل إلى دراسة المتكلم في بعض مقامات بديع الزمان الهمذاني: الموقع والوظائف"

د. بديعة الطاهري
أكادير/ المغرب

مقدمة: إن أول إشكال يواجه دارس الأدب الحديث المتعامل مع النصوص القديمة، هو مدى صلاحية المفاهيم التي يملكها في حقل المحكي التراثي. فإذا كنا في النصوص الروائية لا نجد أي إشكال ونحن نستعين ببعض المفاهيم والأدوات الإجرائية التي يتيحها النقد الغربي، كمفاتيح تعيننا على اكتشاف عوالم النص الروائي (مادام هذا النص حديثا ومتأثرا بالغرب في ولادته وسيرورته)، فإننا ونحن نتعامل مع النص التراثي، واعتبارا للمسافة الفاصلة بين النقد الحديث وهذا السرد، قد نتردد بعض الشيء. لكن ترددنا تبدده النصوص التي نتعامل معها. وهي المقامات، باعتبارها نصوصا سردية تتيح بنيتها المتخيلة، والمتقاطعة مع الرواية ما يشفع اعتمادنا على النظريات الحديثة التي أعادت الاعتبار إلى الجانب السردي في المحكي التراثي وحاولت استجلاء مكوناته وخصائصه.

إن إغفال النقد العربي القديم لهذا المجال، وخلوه من مما قد يساعد الدارس على مقاربته، فضلا عن قلة الدراسات الحديثة، على الرغم من أهمية ما أنجز، يدعونا إلى مثل هذه الدراسة. فمن المتكلم في المقامات؟ هل يجوز لنا أن نتحدث عن الهمذاني داخل هذا النص. أم نستبعده، شأنه شأن الكاتب الحقيقي من النصوص الروائية؟ ثم ما وضع هذا المتكلم؟ وهل انتقال السرد من

مستوى سردي إلى آخر مجرد اختيار فني، أم انه يخضع لضرورة دلالية؟ وما طرائق السرد المعتمدة؟ وما الوظائف المنوطة بالمتكلم في المقامة؟

تلك بعض الأسئلة التي ستساعدنا في الوقوف على الجانب السردي ومميزاته في بعض مقامات الهمذاني. وقبل مقاربة هذه الأسئلة نتطرق إلى بعض خصائص البنية النصية للمقامة.

1- في البنية النصية

من القضايا اللافتة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، بنيتها المستعصية على التحديد والتعريف. فقد اقترح كيليطو بعض العناصر التي تحدد هذه البنية[1]. ومع ذلك تظل مستعصية لوجود مقامات لا تخضع للتعريف المقترح. ومن هنا يمكننا الحديث عن تجاور بنيات مختلفة في هذه المقامات. إنها بنيات تنظم إنتاجها وتدوالها وتدعو الدارس إلى أن يتعامل مع كل واحدة منها على حدة لاستنباط قوانينها السردية.

إن تعدد هذه البنيات راجع إلى ثقافة الهمذاني الغزيرة والمتعددة. ولقدرته الذهنية على تخزين كم هائل من المعارف متعددة المشارب، نجد صداها في هذه المقامات، إما كبنيات مؤطرة، أو كبنيات صغرى متخللة. فعلى مستوى البنيات الكبرى يمكننا الحديث عن الحكاية[2] كبنية متواترة في بعض المقامات. حيث يتابع المتلقي مغامرات شخصية محورية تجابه نقصا معينا تعمل على إصلاحه ومواجهته. فالبطل في المقامة يتأرجح بين حالتين في غالب الأحيان هما التدهور والتحسن مع اختلافات في تحققهما من مقامة إلى أخرى. ففي المقامة البشرية نمر من حالة تحسن إلى حالة تدهور، وفي مقامات أخرى كالمقامة الموصلية نمر من التدهور إلى التحسن.

أما البنية الثانية فهي بلاغية. وهذا لا ينفي تواتر ملامح البنية الأولى فيها. إذ تسرد المقامات ذات البنية البلاغية بدورها مجموعة من الأحداث وتنقلها. لكن البعد البلاغي يظهر فيها أكثر. بحيث تنتفي في معظم الأحيان

الحكاية لصالح بنية حوارية تقوم على فعل السؤال والجواب، يكون الغرض منه تحقيق متعة بلاغية ومعرفية.

وبنية ثالثة هي بنية اللغز[3]. حيث تصبح المقامة كأحجية تتداول بغية فك رموزها.

لكن هذا لا ينفي وجود بنيات أخرى كالوصية والوعظ[4]. وكما تؤطر بنية الحكاية معظم المقامات تؤطر البنية البلاغية المقامات ككل، لأن أهم ما يفسر قبول المقامة كنص نثري خلال القرن الرابع هو اشتمالها على الصورة البلاغية التي تصل قوتها قوة مثيلتها في الشعر.

فضلا عن ذلك تؤطر هذه البنيات بنية شعرية محايثة. فقراءة المقامات تجعلنا نلمس النفس الشعري الملازم لها. وكأننا في المقامة إزاء قصائد منثورة. ولا نعتبر ذلك غريبا إذا استحضرنا السياق الثقافي والحضاري للقرن الرابع الهجري الذي عرف سيادة الشعر والصنعة البديعية. وهو افتراض يتوجه تواتر الشعر كبنية متخللة تعتمدها المقامة في السرد.

إن تعدد البنيات في المقامات يجعلنا ننظر إليها كمتتالية[5](séquence) وفق مبدأي الاتصال والانفصال (l'embrayage et le débrayage).

إن المقامة الواحدة تشتغل كمتتالية مستقلة بعناصرها المكانية والزمانية والحدثية. فكل مقامة هي قصة مستقلة بذاتها. لكن هذه الاستقلالية سرعان ما تنحصر إذا أخذنا بعين الاعتبار عنصر الاتصال. فوحدة المقامات تأتينا عبر الاتصال الممثلي(embrayage actoriel) خاصة. لأننا نلاحظ تواتر محافل سردية تمثل في السارد المتكلم بضمير الجمع والسارد المشارك عيسى ابن هشام، والسارد الشخصية الثالث وهو أبو الفتح الإسكندراني. مع العلم أن أسماء الشخصيات تتغير أحيانا. وفي هذه الحالة نستنتج عاملا آخر يشكل الرابط بين المقامات: وهو الاشتغال على بعض التيمات المتواترة مثل التدهور والحيلة والخديعة والفصاحة. تيمات تجعل المقامات تدخل في علاقة حوارية تتيح لها

ارتباطا يفسر تجاورها النصي على الأقل. بناء على ذلك يتيح تواتر الشخصيات والتيمات في معظم المقامات تحققها نصا كبيرا أو متتالية كبرى.

وضعية السارد: إن تحقق المقامات كنص تخيلي يجعلنا نستبعد الحديث عن حضور الكاتب الحقيقي فيها كشخصية وسارد، لاعتبارات عدة، منها أن النص بمجرد خروجه يؤول وفق استراتيجيات معقدة من التفاعلات التي تستوعب داخلها القراء بمؤهلاتهم اللسانية باعتبارها موروثا اجتماعيا[6]. كما لا يمكننا أن نماثل بين الكاتب وبين شخصية واحدة، بينما العالم الحكائي كله من صنعه. فضلا عن أن المؤلف حسم في وضعه من خلال العقد الرابط بينه وبين المتلقي بتعيينه العمل مقامة، وجعل عوالمها متخيلة. وإذا كان الهمذاني قد اكتفى بتحديد وضعه من خلال هذا العقد المبرم بينه وبين المتلقين، فإن غيره ممن كتب المقامة كالحريري مثلا [7]، قد حسم في الأمر صراحة. وأكد على الطابع التخييلي لنصوصه وعلى المسافة العازلة بينه وبين شخصياته. ومن هنا فإننا لن نتحدث عن الكاتب بل سنقارب السارد في المقامة باعتباره متكلما له أوضاع سردية مختلفة، وطرائق في الحكي متعددة، ووظائف تترتب عن أوضاعه السردية، وبالتالي فإن حضور الكاتب يكون ضمنيا انطلاقا من مختلف المستويات السردية وما ينتج عنها من مواقف ووجهات نظر. إنه داخل عالم المقامة ككل، لكن دون تحقق نصي صريح. إنه الإيديولوجيا أو الأطروحة المنظمة والمتخللة لهذه المقامات.

أول ما يثير انتباه قارئ المقامات بعامة ومقامات بديع الزمان الهمذاني بخاصة، بنيتها السردية المركبة. إذ نلحظ تواتر الحكي من خلال مستويين سرديين:

- Iمستوى خارج حكائي extradiégétique[8] يصادفنا فيه سارد من الدرجة الأولى متباين حكائيا يستعمل ضمير المتكلم. سارد غير معروف

وغير محدد اجتماعيا أو ثقافيا. لا يخبر عنه سوى ضمير المتكلم الجمع الذي يتيح افتراض وضعين:

- إما أن يكون شخصية مفردة وبالتالي تكون "نون" الجماعة هي "نون" التعظيم التي نجدها في العديد من النصوص التراثية خاصة.
- أو قد يكون جماعة من الناس وهذا ما يفترضه النص ويرجحه باعتباره مقامة. وفي الحالتين معا فإن ضمير الجمع يقوم بوظيفة المصادقة على النص باعتباره موثقا، وممتلكا لمصداقيته السردية. كما يشكل مدخلا نصيا للمقامة.

يكتفي هذا السارد بالإخبار والتوثيق حيث يدرج سند الخطاب وهو عيسى بن هشام، بل ويحرص على تكرار هذا السند والتذكير به حتى داخل المقامة الواحدة. إذ يحد ث أن يقاطع محكي عيسى بن هشام ليحين السند. فدوره هو التمهيد لدخول السارد الثاني. ليتحقق في المقامة من خلال وضع آخر وهو المسرود له غير المشارك. إذ تغيب في النص كل المؤشرات، سواء النحوية منها أو النصية، التي تحدد وجوده النصي كمسرود له.

كما يتحول هذا السارد في بعض المقامات. إذ يستبدل ضمير الجمع المتكلم بضمير المتكلم المفرد، أو بضمير الغائب المفترض في الجملة التمهيدية التالية:"قال عيسى بن هشام".. ونحن إذا أخذنا بعين الاعتبار رأي ميك بال Miek Bal[9]. لا نجد اختلافا بين السارد بضمير المتكلم والسارد الغائب. إذ تفترض الحالة الأخيرة بدورها ساردا متكلما خفيا يقول "أقول أو نقول "حدثنا عيسى بن هشام". فكأن هذا التغييب هو مجرد محاولة تجنب التكرار. فالسارد المتكلم حاضر بقوة السرد.

2-المستوى **الداخل حكائي**. Intradiégétique : فيه يمثل السارد من الدرجة الثانية أو السارد الداخل حكائي. وهو سارد مشارك في الأحداث. أو بمعنى آخر، هو سارد متماثل حكائيا. لكن صلته بالسارد الأول لا تتحدد. ما

يجعل العلاقة بينهما تخيلية مفترضة تقف عند حدود إعلان السرد، وخلق فرصة تحققه. لكن هذا السارد لا يستفرد بالسلطة السردية كسارد مشارك. إذ يعمل محكيه على إفراد مكان لسارد آخر تدور حوله بعض الأحداث هي بؤرة المقامة ولحمتها. بل هي ما يشكل العالم الدلالي الذي تقوم عليه المقامة في معظم الأحيان. وينفصل بدوره عن السارد الأول بشكل كلي في حين تظل صلته بالسارد الثالث حاضرة ومستمرة (باستثناء المقامة البشرية)، إما من خلال وضعيهما كسارد ومسرود له، أو من خلال اشتراكهما في أدوار سردية وتيماتيكية مشتركة، كما هو الأمر بالنسبة للمقامة الموصلية.

إذا كان وضع السارد الأول ثابتا في المقامة، فإن وضع السارد الثاني متحول. إذ ينتقل من وضع السارد المتماثل حكائيا إلى وضع السارد المتباين حكائيا وهو ما يتحقق مثلا في المقامة البشرية. إذ ينسحب كليا. ويكتفي بدور الناقل للأحداث. كما انه في مقامات أخرى إما إن يستفرد بالسرد والبطولة كالمقامة البغدادية. أو أن يكو ن ساردا ومشاركا الراوي الثالث البطولة. وفي الحالتين الأخيرتين تعمل التجربة الذاتية التي ينقلها السارد على مضاعفة البعد الدرامي الذي تسعى المقامات إلى تبئيره. لكن غياب السارد الثالث وحضوره لا يكونان اعتباطيا، ذلك أن غيابه يعطي للمقامة عند بديع الزمان الهمذاني فرصة التحقق وفق مغايرات مختلفة، مما يعني تغيير بنية الحكاية[10]. فإذا كان التعرف يحصل إما في بداية المقامة أو نهايتها في المقامات التي لا يكون فيها السارد الثاني مشاركا في حكاية أبي الفتح، فإنه ينتفي في المقامة التي يغيب عنها أبو الفتح.

وهكذا يتخذ السند في المقامات وضعين أساسين:

أ–وضع اتصالي.[11]

بحيث لا تنقطع حلقات الساردين، ويروي السارد الثاني عادة ما عاشه أو شاهده أو سمعه ثم يترك الوظيفة السردية لسارد شخصية: هو إما أبو الفتح،

أو شخصية أخرى. ويكون السند إما مفردا بحيث نمر من عيسى بن هشام إلى السارد الثالث مباشرة وهو أبو الفتح الإسكندراني، أو مضاعفا بحيث تتعدد حلقات السرد فنمر من عيسى بن هشام إلى شخصية أخرى تذكر مصادر خبرها (وفي هذه الحالة يكتفي بنقل أحداث لم يعشها ولم يشاهدها. فالمسافة تتخذ بينه وبين ما يحكي ولا يكون له حضور إلا من خلال اختياره للمسارات السردية).

-ب-وضع انفصالي [12]

تغيب في هذه الحالة حلقة، أو حلقات في السند تمكنه من أن يكون متواصلا.وهو ما نعاينه مثلا في المقامة البشرية والمقامة الصيرمية.. ففي الحالة الأولى نمر من عيسى بن هشام إلى ببشر بن عوانة، وفي الثانية من عيسى بن هشام إلى محمد بن إسحق المعروف بأبي العنبس الصيرمي.

ويفترض في الإسناد تأكيد مصداقية الحدث وتعزيز الثقة فيه. وهو تقليد ليس غريبا على الثقافة العربية. ومهما تكن نسبة هذا الإسناد على مستوى الصحة أو الكذب، فقد كان ضروريا في التراث العربي القديم. فكما كان الأدب بحاجة إلى قوائم تسنده وتضمن تداوله[13]، كان النص "بحاجة إلى مؤلف ضامن لصحته كي يصير نصا"[14].

تتقاطع المقامة بذلك مع النصوص الأصيلة. لكنها باعتمادها شخصية ساردة لا وجود لها خارج النص، تحاور النصوص المتخيلة القديمة مثل:"كليلة ودمنةّ و"ألف ليلية وليلةّ". وهي بذلك تقع موقعا وسطا على مستوى السند: فلا هي تسند السرد إلى سارد معروف، شأن الحديث والسنة والنصوص المنقبية، ولا هي تغفل تحديد السارد وتعيينه، مثل **كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة**. يجعلنا وضعها هذا نرجح كون الإسناد في المقامة مجرد لعبة سردية متكررة، ومدخلا إلى عالم المقامة. وفي أحيان أخرى مجرد محاكاة ساخرة لأجناس تقوم على السند وتحافظ على شروطه. وهو سند غير مؤكد ومضبوط، لما يلاحظه القارئ

من انتهاكات تخرق هذا الميثاق الذي نجده في الحديث والتاريخ والمناقب. حيث تحرص هذه المجالات على ذكر اسم الراوي ولقبه وأصله. وهو عادة شخص تقي ثقة، مما يعطي للنقل قوته الإقناعية، ويجعل المتلقي يصادق عليه بالصدق. ونحن نرجح الجانب الساخر، لأن عيسى بن هشام، وكما يتفق النقاد شخصية لا وجود لها. شخصية ورقية[15] لا تأخذ معناها إلا من خلال ما تنجزه من أفعال داخل السرد، وما يربطها من علاقات بين الشخصيات والفضاء الذي تتحرك فيه. فضلا عن أن الفكاهة رافد أساس ومميز لمقامات بديع الزمان الهمذاني. وبالتالي فانتهاك السند واستحضاره هما وجه من أوجه هذه السخرية.

ويتكرر السند على مستوى الفضاء.فالسارد يهتم كثيرا في سرده بذكر المكان الذي انتقل منه أو حل به. فالترسيخ المكاني l'encrage spatiale متواتر إما بشكل مباشر: حيث يشير السارد إلى المدينة أو البلد صراحة، أو من خلال الإحالة عليهما عبر نعوت دالة وأصيلة في المكان مثلّ مدينة السلام". فهو هنا يؤسس للنبرة الجادة التي تعتبر لبنة أولى في السخرية. كما أن الخطاب الساخر يقوم على المواربة. فالترسيخ المكاني يحيل من خلال الأبعاد الأكسيولوجية التي تملأ المكان على جديته، وجدية ما يرتبط به. لكن بمجرد ما نقرا، المقامة نلحظ طابعها الساخر، فلا يهم الفضاء كسند، وإنما ما يملأه من دلالات ساخرة وهو ما يعزز ما ذهبنا إليه سابقا.

يتجلى الانتهاك أيضا في فوضى زمنية أشار إليها كيليطو. حيث المنسوب إليه الحديث يحكي عن أحداث يدعي انه عاشها، بينما العامل الزمني يجعل ذلك أمرا مستحيلا.

وهو ما يمثل في المقامة الغيلانية، إذ ننتقل من القرن الرابع الهجري زمن عيسى بن هشام وراويه الثاني عصمة بن بدر الفزاري، إلى القرن الأول حيث نتابع أحداثا تدور خلال هذه الفترة يؤكد السارد الأخير أنه كان شاهدا عليها. يقول:" سأحدثكم بما شاهدت عيني ولا أحدثكم عن غيري "[16].

تتميز المقامات بهذا بتعدد سردي. إذ ننتقل من مستوى إلى آخر.

ويفسر هذا التعدد ثلاثة عوامل:

- الأول خارجي يرتبط بطقوس كتابة متواترة في السرد العربي القديم. تتأسس على التداخل السردي، وإدراج سلسلة من الرواة l'enchassement. وهو ما نجده متداولا في الحكايات والأخبار

- والثاني دلالي. لأن الاختيارات السردية لا تكون جمالية[17] وحسب، وإنما هي اختيارات دلالية. فحضور السارد الأول يهدف إلى خلق نوع من التشويق لدى المتلقي. ذلك أن التزامه الموضوعية في نقل الحدث واتخاذ مسافة بينه وبين ما سيحكي، يخلقان لدى المتلقي نوعا من الفضول، ويجعلانه ينتظر تلقي الحكاية ويستعد للتفكر في أمرها. أما عندما يتعلق الأمر بالسرد المتماثل حكائيا فإن السرد بضمير المتكلم: "يتيح سرد معيش ذاتي دون ادعاء تقديمه باعتباره حقيقة ذات طابع ذاتي محض.... إنه موجه نحو الحقيقة الموضوعية للمسرود"[18] كما أن المتلقي لا يمكنه الإلمام بباقي الشخصيات إلا من خلال علاقة دائمة مع السارد المتماثل حكائيا. مما يعني أن تمثلهم ووصفهم يتمان من خلاله. وبالتالي فحضوره ضروري. فضلا عن ذلك يتيح تعدد المستويات السردية، تعدد المواقف والأوعية وما ينتج عنها من دلالات ثقافية واجتماعية مختلفة.

- أما العامل الثالث فهو بنائي، يمكن تبينه من خلال الانتقال من مستوى السارد الثاني إلى مستوى السارد الثالث. إذ يتيح هذا الانتقال هيكلة معظم المقامات وتوزعها بين نمطين من المحكي:[19]

- محكي متكرر ثابت، يصف حالة ما قد تكون سفرا أو حالة نفسية. وهو ما يرتبط بالسارد الثاني، أي عيسى بن هشام.

- ومحكي ثان متغير تبعا للمغامرات والتجارب التي ينقلها السارد الثالث.

وفي الحالتين معا نكون إزاء سرد بضمير المتكلم. لكن الملاحظ هو أن هذه الأنا لا تكون واحدة. وبالتالي فهي ذات "معنى جديد في كل وقت تستخدم فيه وتشير في كل حين إلى فاعل بذاته"[20] وهو ما سنحاول أن نراه ونحن نقارب المحافل السردية ووظائفها. لكن قبل ذلك نرتئي الوقوف عند بعض طرائق السرد. وهي بدورها تضع الحدود وتسجل الاختلافات بين هذه الأنوات المتكلمة.

طرق السرد

التنقل: يرتبط تحقق المقامة كنص تخيلي بمجموعة من البنيات والآليات المتواترة فيها أولها التنقل وتخبر العناوين التي تحيل على أماكن جغرافية عن هذه التقنية. ودورها في تشكل عالم المقامة فالانفصال المكاني هو ما يتيح للسارد المشارك تنمية مادته الحكائية. إذ لا يولد الحكي ولا ينمو إلا من خلال تنقل عيسى بن هشام بين فضاءات مختلفة يعيش فيها تجارب وأحداثا تشكل نص محكياته. ولا يكون الاتصال المكاني نهاية لأن في نهايته انتهاء للكلام المباح. والوصول استراحة وتوقف مؤقت ونوع من استرداد الأنفاس وتأكيد للعبور[21].

إذا كان التنقل يتيح معرفة حالات مختلفة ترتبط بعيسى بن هشام، فإن الملاحظ هو أن هذه الحالات والتحولات لا تكون غاية المحكي. وإنما مثير ووسيلة لحكي أحداث أخرى. إذ تتوارى حكاية سفر عيسى بن هشام. وهي حكاية خادعة تؤسس لحالة نقص، تجعل القارئ يتهيأ لاستقبال مسارات سردية تذهب بالحالة الأولى إلى نهايتها المفترضة، وهي إصلاح النقص الحاصل في البداية. لكنها تختفي لتبرز حكاية أخرى، هي ما يشكل لحمة المقامة وأساس وجودها. وتتحقق بعض القرائن النصية التي تتيح الانتقال من الحكاية الأولى إلى الحكاية الثانية، تجعل عيسى بن هشام ينتقل من موضوع للسرد إلى ذات للسرد

بينما أنا بمدينة السلام.....فإذا هو قراد (المقامة القردية)

أحلتني دمشق. .... إذ طلع (الساسانية)

أحلني جامع بخارى. .... طلع علينا (البخارية)

بينا نحن بجرجان.....إذ وقف علينا رجل ليس بالطويل ولا القصير (المقامة الجرجانية)

ولا يحين محكي أبي الفتح إلا عن طريق تنقلات عيسى بن هشام. لكننا لا نستطيع إغفال تأثير حكاية أبي الفتح في حكاية عيسى بن هشام. إذ تمتلك من القوة السردية ما يجعل حكاية عيسى تختفي وتتوارى، بل تفقد كل إمكانيات انتشارها السردي والدلالي الممكن لتحل محلها. وبهذا فإن محكي عيسى بن هشام في بعض المقامات يشتغل كمحكي تمهيدي، شأنه في ذلك شأن الخطاب التمهيدي الأول" حدثنا عيسى بن هشامّ. ونلاحظ في الخطابين التمهيديين معا هذه المسافة بين المتلفظ والخطاب المنقول لتأكيد موضوعية المتلفظ. بحيث تختفي جميع القرائن الدالة على المتلفظ التمهيدي. لكن هذا لا ينفي أهمية خطاب عيسى بن هشام على مستوى بناء المقامة. إذ يعود إلى مسرح السرد في نهاية المقامة معلنا لحظة التعرف على أبي الفتح الإسكندراني. ولحظة التعرف هذه كما يرى بعض النقاد، منهم كيليطو، هي قوام المقامة وعنصرها البنيوي الذي يميزها عن الكثير من المحكيات. فسرد عيسى بن هشام حلقة لا يمكن الاستغناء عنها. لأنها تقود إلى المرحلة النهائية في المقامة.

وكما يكون التنقل فاعلا في توليد حكاية عيسى بن هشام، يكون ضروريا أيضا لنمو محكي أبي الفتح وتجدده وتنوعه واختلافه من مقامة إلى أخرى. فأفعال أبي الفتح القائمة على الخداع والمراوغة والحيلة والمواربة من أجل الوصول إلى موضوع القيمة، لم تكن لتنجح وتستمر وتتجدد لو لم يكن في حالة انتقال مستمر. لأن الاستقرار في مكان واحد من شأنه أن يفضح أمره، ويجعل مسعاه مشلولا والسرد محدودا قد يقف عند حدود مقامة أو ثلاث على

الأكثر. فالانتقال عنصر بنيوي في المقامة لأنه يحددها باعتبارها عملية بحث تقوم به الذات عن "موضوع قيمة" تحققه رهين "بموضوع استعمالي" آخر من طبيعة معرفية (وهو الخداع). ويشكل المكان عاملا مساعدا لأنه يتيح غنى التجربة[22]. كما يكون الانتقال أيضا وسيلة لتعدد الحكايات، بل واستقلالها داخل المقامة الواحدة. وهو ما نلحظه مثلا في المقامة الموصلية. حيث يتراجع الحدث الأول، وهو الرجوع إلى البيت ليتابع القارئ مغامرتين لعيسى بن هشام وأبي الفتح، في مكانين مختلفين تدور في كل منهما أحداث لا رابط بينها سوى الشخصيتين.

الإقناع: لا يكتفي السارد بنقل الخبر. وإنما يسعى إلى التأثير في الآخر ليتفاعل معه ويستجيب لأهدافه. فخطاب المتكلم يكون مؤسسا على قصد مخطط له سلفا وفق أهداف وغايات تختلف من مقامة إلى أخرى. بمعنى آخر، هناك دوما "موضوع قيمة" تسعى الذات إلى الحصول عليه. وكما يقوم الإقناع على العقل، يقوم على الحيلة والتظليل. وهما المستويان المتداولان في معظم المقامات.

يقوم المستوى الأول على الموسوعة العلمية للمتكلم. وهي موسوعة نقدية وأدبية ودينية واجتماعية تجد لها رافدا فيما يسم المتكلم من بلاغة التواصل وفصاحته. وسلامة اللسان وامتلاك ناصية اللغة، والقدرة على الحكي، وتنظيم المعلومات. وهو ما يتحقق في بعض المقامات، مثل المقامتين الحمدانية والقريضية. ففي هذه الأخيرة ينبني الحكي على الحوار بين عيسى ابن هشام وأبي الفتح. ويستقل كلام هذا الأخير بقوة الحضور والإقناع باعتباره متكلما ممتلكا لذاكرة معرفية، تمكنه من الخوض في قضايا شعرية والحسم فيها بعدما تعذر أمر ذلك على السارد الثاني وجماعته. وقد كان في ذلك حريصا نبيها لا يأتي بالحكم مباشرة، بل يعتمد الحجج والبراهين. كما يعمد إلى الموازنة. وهو بذلك يحمل المرسل إليه على الاعتقاد بسلامة رأيه ورجحانه.

والاعتماد على الإقناع هو ما يجعل السرد يسترسل ويتطور. كما أن المتكلم في هذا المستوى لا يسعى إلى إخبار المتلقي، ولا يكتفي بتقديم المعلومات، بل يسعى إلى التأثير فيه ودفعه إلى اتخاذ موقف ما من القضية التي تشكل موضوع التفكير. ومن هنا يصبح خطاب المتكلم فعلا وحجاجا وليس نقلا للمعلومات وإخبارا عنها.

أما التضليل والحيلة فيرتبطان بمتطلبات الحياة اليومية. إذ نلاحظ المتكلم على اختلافه، سواء المرآة في المقامة البشرية أو عيسى وأبي الفتح في المقامة الموصلية، يعيش نقصا إما ماديا أو عاطفيا، يجعله يبحث عن لحظة إصلاحه. فالمرأة التي أغار بشر على ركبها تحاول أن تثنيه عنها بعدما أعلن إعجابه بها وتزوجها غصبا عنها. فهي تصادق أولا بالسلب على حكمه ثم تمارس فعلا إقناعيا عليه بذكر محاسن ومفاتن امرأة أخرى. مركزة على المفاتن الخلقية لما لها من قدرة على إثارة الشهوة.

كما يعتمد عيسى وأبو الفتح الحيلة والتضليل من أجل استغلال أهل القرية في المقامة الموصلية.

التضخيم amplification

إذا كان الخطاب المسرود[23] يعمل على اختزال خطاب الشخصية بحيث يبقى أمر ملئه متوقفا على المتلقي، ينثره ويخلق له مختلف المسارات السردية الممكنة، القادرة على انتشاره الدلالي، فإن خطاب الشخصية في حالة التضخيم يقوم بحركة عكسية. حيث يقوم بتمديد الخطاب وتمطيطه. ويشير جنيت إلى ثلاث طرق تتحقق من خلالها هذه التقنية أهمها التضخيم بواسطة تطوير المحكي باستغلال هفواته وإذابة مادته ومضاعفة جزئياته وظروفه [24]. فلا شيء يوقف حركة السرد وتطوره في هذه الحالة، سوى نفاذ صبر المتلقي أوقدرة المتكلم على السرد. وتشتغل هذه التقنية في العديد من المقامات. إما بواسطة الوصف الذي يمتد ويطول. فينتقل المتكلم من وصف إلى آخر لدرجة أن

المتلقي المتخيل ذاته يعلن الضجر. وتشتغل هذه التقنية بقوة في المقامة المضرية والمقامة النهيدية والمقامة المجاعية. ويكون الهدف من ذلك الفكاهة والسخرية كوسيلتين تواجه بهما الحالات الدرامية التي تعترض الشخصية. ففي المقامة الأخيرة يكون عيسى بن هشام في حالة جوع شديد نتيجة ما أصاب البلاد من مجاعة. فيستخف به أبو الفتح الإسكندراني دون أن يدري. إذ مناه بأكلات عمل على وصفها بطريقة تثير شهيته أكثر. ليتبن في النهاية أن الأمر مجرد مزحة من أبي الفتح. فقد كان بإمكان أبي الفتح أن يقول له: "ما رأيك في طعام فخم يضم أصناف ثلاثة طيبة". فالسخرية كما أشرنا باعتبارها وسيلة لمواجهة الحالات الدرامية، هي السبب في هذا التمديد.

أما التقنية الثانية لاشتغال التضخيم فتتم بواسطة السرد. إذ يتيح السارد للوضع الأول في محكيه حالات انتشار سردي متعددة. ففي المقامة الصيرمية مثلا لا يقف محمد بن إسحاق المعروف بأبي العنبس الصيرمي وهو السارد الثالث المشارك في هذه المقامة عند الإشارة إلى حالتي التحسن والتدهور اللتين مر بهما، ولكنه يمددهما بذكر أوضاع عدة تنثر هاتين الحالتين وتملأهما دلاليا. بل نلاحظ أن هذه التقنية تدخل في حلبتها المتلقي. لأن التواصل مع السارد في معظم الأحيان لا يمكن أن يتم إلا باستحضار موسوعة المتلقي المعرفية، سواء كان هذا المتلقي الخارج نصي قديما أو حديثا. فالسارد يستعمل قاموسا لغويا بليغا يتطلب قدرة على تفكيكه وفهمه، كما أنه، وهو يعبر عن حالتي التحسن والتدهور اللتين عاشهما، يستحضر بعض الأسماء المرجعية التي تحضر ممتلئة دلاليا، وتشتغل كبرامج سردية جاهزة تستدعي من القارئ نثرها، والتفكر فيما تحيل عليه من دلالات توسع أكثر ما يصبو السارد إلى إبلاغه. يقول مثلا في وصف حالة التحسن: "كنت عندهم أعقل من عبد الله بن عباس وأظرف من أبي نواس وأسخى من حاتم، وأشجع من عمرو وابلغ من سحبان وائل وأدهى من قصير واشعر من جرير"[25]. أما في وصف حالة

التدهور فيقول "أوتح من بزيع الهراس ورزين المراس "ويضيف واصفا تدهور وضعه "أرعن من طيطئ القصار وأحمق من داوود العصار"

يراكم السارد العديد من الوحدات المعجمية لوصف حالة التدهور التي وصل إليها بسبب سوء صحبته. وبالتالي فإن هدف تتالي الأحداث بهذه الطريقة ليس فنيا فحسب، يكتفي بإحداث الأثر البلاغي الذي يعد سمة مميزة للمقامة، وإنما هو وظيفي دلالي. غايته إضفاء البعد الدرامي المناسب للبنية الحكائية، التي يفترض فيها بطل يمر من حالة إلى أخرى. ويخوض عدة امتحانات وتجارب، يتطلب نقلها أسلوبا وطريقة توضح طبيعتها من وصف للحالة النفسية والاجتماعية والمخاطر وغيرها. وتلك خصائص تتكرر في مقامات أخرى مثل المقامة الحرزية.

وظائف السارد: شخصيات المقامة في معظمها شخصيات مؤنسة. وهي أنماط بشرية تترجم مواقف وسلوكات بشرية متعددة. تنتمي إلى أواسط مختلفة. تتغير أوصافها وأفعالها من مكان إلى آخر. إنها شخصيات مرجعية[26] واجتماعية[27] لكلامها إضاءة إيديولوجية.

تتعدد الشخصيات المتكلمة في النص أحيانا كساردة متحكمة في السرد وسيرورته، وأخرى كشخصيات فاعلة لكن المقامة تبئر من خلال التكرار شخصيتين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح وهما –كما أسلفنا الذكر–رهينا النص لا وجود لهما خارجه، يمتلئان دلاليا من خلال أفعالهما وعلاقاتهما بمكونات عالم المقامة.

تتقاطع الشخصيتان وتختلفان، تتقاطعان في أنهما لدى دخولهما عالم السرد يكونان في حالة تنقل. وإذا كان تنقل عيسى بن هشام مسردا أي محينا سردا (narrativisé) فإن تنقل أبي الفتح مفترض. ولا يمتلك السفر قيمة في حد ذاته. لأن ما يهم ليس السفر وإنما الغاية منه. كما يتميزان كذلك من باقي الشخصيات. كلاهما يمتلك من العلم والمعرفة القدر الكبير. وكلاهما يتسم

بالحيلة وحسن الكلام. فكما يمارس أبو الفتح الحيلة يمارسها عيسى بن هشام يكونان شريكين أحيانا، ومنفصلين في معظم الأحيان. يخلق تقاطعهما على هذا المستوى نوعا من التماهي بينهما. لكنهما يختلفان في أشياء كثيرة: أولها الوضع الاجتماعي. ثانيها حالة ظهورهما في النص. ففي معظم المقامات يكون أو الفتح شخصية متنكرة ويكون لعيسى بن هشام فضل التعرف عليه. كما أنهما يختلفان في مناحي سردية وخطابية سنحاول أن نبينها من خلال تركيزنا على كل واحد منهما على حدة. ونحن لا ندعي الاستقصاء الدقيق لكل المقامات ولا لكل الوظائف التي يضطلع بها الساردان. ولكننا نحاول الوقوف عند أهم الوظائف التي لها دور كبير في إنتاج معنى المقامة.

عيسى بن هشام: إذا كان المحكي بعامة لا يقوم إلا بوجود سارد ومسرود له. فإن المقامة تأتي لتحين ذلك نصيا. إذ يعتبر الحديث فيها وحدة دلالية هامة. فالسارد الأول يحدث مسرودين مجهولين. والسارد الثاني يحدث السارد الأول المجهول. كما يتحدث إلى مسرودين نصيين آخرين. فتكون أول وظيفة يقوم بها السارد هي الوظيفة السردية. وهي وظيفة إجبارية أو الإلزامية تقترن بفعل الإخبار.

وإذا كان فعل الإخبار لدى السارد الأول يتوقف عند حدود النقل الموضوعي للأحداث، وهو ما يتأكد من خلال اختفائه بمجرد ظهور السارد الثاني، واكتفائه بالخطاب التمهيدي الذي يعلن فيه إسناد الخبر إلى عيسى بن هشام، فإن هذا الأخير اعتبارا لمشاركته في الأحداث يوزع محكيه بين تجربتين:

التجربة الذاتية. إذ تحتل الذات في محكيه المركز والمحيط. بحيث يذهب الحديث عن الذات إلى درجة التغني بفضائلها. فينقلنا بذلك إلى سياق معرفي مشترك بين الشعراء منذ الجاهلية.حيث الشاعر لا يتوانى عن ذكر فضائله. وفي المقامة بعامة يرتبط مدح الذات بذكر الفضائل المعرفية. فعيسى

ابن هشام عالم متفقه في علوم مختلفة. وفصيح بليغ عاشق للعلم والمعرفة. ما جعله ينتقل دون توقف بحثا عن مزيد من المعرفة. وهو ما نراه مثلا في المقامة البلخية " لا يهمني إلا مهرة فكر أستقيدها أوشرود من الكلم أصيدها. فما استأذن على سمعي مسافة مقامي أفصح من كلامي ص17 وبالتالي فإن أول ما نعرفه من سمات تميز عيسى بن هشام هو علمه ورفعة شأنه. ولعل هذا ما يجعل خطابه يسلك إستراتيجية السؤال من أجل الوصول إلى الحقائق التي يرغب في الحصول عليها. فيذكرنا بالطريقة السقراطية في البحث عن الحقيقة. ترتبط فضائله أيضا بمكانته الاجتماعية. فهو الواهب والمانح دائما (يتحدث عن غناه في المقامة البصرية). كما أنه لا يقف عند حدود التجربة الذاتية. بل ينقل لنا من مشاهداته ما يرتبط بالآخر. فالمحكي هو ثمرة تجارب ومعاينة مجموعة من الأحداث، منها ما يرتبط بالذات. ومنها ما يرتبط بالآخر. وبالتالي لا يكتفي السارد بالوظيفة السردية ولكنه يقوم أيضا بوظيفة الشهادة.إذ يذكر باستمرار مصادر أخباره. وهي التجربة المعيشة، لأن السارد يتنقل يسافر يحتك بالناس. ولا ينقل السارد إلا ما يقع له في زمن الحاضر الذي هو زمن السرد. فالمقامة تحيلنا دائما على انتقال الراوي من فضاء إلى آخر. لكن السارد لا يسترجع ما وقع له في المكان الماضي، وإنما ما يقع له في المكان الحاضر.

يقوم سرد عيسى بن هشام على ما تراه العين وتدركه في أحيان كثيرة. لأن عيسى بن هشام يحكي مرئياته. وبالتالي يعاين المتلقي تداخل السردي والمسرحي وتجاور الحكي والرؤيا. إذ يؤمن فعل السرد مجموعة من المشاهد المرتبطة بتنقلات عيسى بن هشام بين فضاءات مختلفة، وحالات وتحولات ترتبط أيضا بابي الفتح. وهي حالات تخرق المتصل عبر تحققها الذي يمتلئ غرابة. فما يثير عيسى بن هشام هو مظهر أبي الفتح وحالاته المتناقضة. لكن فعل السرد لا يقف عند حدود ما تراه العين وتدركه، لأن المظهر لا يعتبر المثير الوحيد للسرد. فعيسى بن هشام يلتقي بأبي الفتح في فضاءات عامة،

تجمع عامة الناس فقراءهم ومتشرديهم. ومع ذلك لا يلتفت إلى مثل هذه الحالات إلا في حدود خدمتها لموضوعه. ويستهويه منظر وحال أبي الفتح. وبهذا فإن سرد عيسى بن هشام يقتفي حالات أبي الفتح. فيركز على مظهره وهيأته. وهي مظاهر تختلف من مقامة إلى أخرى تدرج أحيانا في إطار التكرار، وأخرى في إطار الاختلاف. ولا يمتلك السرد قيمته إلا باقترانه بما تلتقطه أذن عيسى بن هشام وما يسمعه. يخلق الاقتران بين الرؤيا والسمع حالات متناقضة مثيرة للإدراك. فأبو الفتح فصيح وبليغ وعالم، ولكنه متشرد ولص وقراد، وغيرها من الحالات والتحولات التي ترتبط به. ويقوم السارد من خلال هذا المستوى بوظيفة التعليق. وهي وظيفة تشتغل بشكل غير مباشر، لأن السارد لا يدرج رأيه وحكمه مباشرة. ولكنه يدعو المتلقي إلى استنباط موقفه المبني على الشجب من خلال هذه المفارقة بين ظاهر الشخصية وكينونتها. وهو شجب لا يرتبط بالشخصية وإنما بالظروف التي أودت بها إلى تلك الحالة. وفي أحيان أخرى يتدخل مباشرة ليبدي وجهة نظره في إنجاز أبي الفتح، ويصادق عليه بالسلب، كقوله في المقامة المجاعية: "من أي الخرابات أنت" أو في المقامة الأذربيجانية: «ويحك يا أبا الفتح بلغ هذه الأرض كيدك" وهو سؤال استنكاري يدين حيل أبي الفتح لأن تناقض شخصيته يثير العجب والغرابة والعبث.

نلاحظ أن المقامة لا تنتهي بتدخل عيسى بن هشام ولكنها تتيح الفرصة لأبي الفتح معقبا على مصادقة عيسى بن هشام من خلال أبيات شعرية تختلف من مقامة إلى أخرى. فقد يرتبط تعليقه بتعليل حالته. أو بوصف حالة الآخرين. يقول في وصف حالته:

الذنب للأيام لا لي فاغتصب على صرف الليالي [28]

أما في وصف الأخر فيقول:

الناس حمر فجوز وابرز عليهم وبرز (الإصفهانية)

ويتجاور تعليق الساردين حاملين لوجهات نظر مختلفة. لكن النص لا ينتصر لأي منهما وربما هذا يعود إلى عدم التناغم بين عالميهما الثقافي[29] لكن المؤكد في المقامة هو أن "أنا" السارد تطرح العوالم الحكائية للتفكير والسؤال وإعادة النظر. وهي عوالم تتوزع بين الاجتماعي والأدبي والفلسفي فمحكيها بذلك لا يكون بريئا.

وبهذا فان" أناّ السرد كما أشرنا سابقا تمتلك معنى" جديدا في كل وقت تستخدم فيه وتشير في كل حين إلى فاعل بذاتهّ"[30]

تقترن بالوظيفة السردية وظيفة التوجيه. وتتعلق بالاختيارات المقترحة لمسار الحكاية. صحيح أن السارد لا يعلن صراحة عن اختياراته النصية ولا يناقشها ولكنه يكون مع ذلك المتحكم الأساس فيها. وهو ما يتبين لنا من خلال اختلاف تحيين بنية التعرف في المقامات. إذ يسلك عيسى ابن هشام أحيانا طريق التشويق، فيخفي أمر أبي الفتح الأسكندراني، ويعلن عن شخصيته في أحيان أخرى منذ بداية المقامة. إنه المتحكم في عالم السرد. هو الذي يختار شخصياته، والأفعال التي تسند إليها. بل وحتى العوالم الدلالية التي تملأ كل محكي على حدة. لهذا وجدنا العوالم الدلالية في المقامة تتوزع بين الموعظة والمعرفة والحكمة والحيلة. وفي بعض الحالات–وعلى الرغم مما يبديه السارد أحيانا من قصور معرفي–فإنه يعرف مسبقا مآل محكيه. وهذا راجع من جهة إلى وضعه السردي المضاعف. فهو راو وشخصية مشاركة. ومن جهة أخرى إلى اعتماده الذاكرة لاسترجاع أحداث عاشها في أزمنة وفضاءات مختلفة.

السارد الثالث أبو الفتح الإسكندراني: شخصية تقوم بدور أساس لا تحيد عنه إلا نادرا. إنه دور المكدي الذي يحتال على الآخر للإيقاع به. فهو دائما المحتال المنتصر. ولا يتخلف عن هذا الدور إلا في المقامة المضيرية حيث تقلب الأدوار. فيصبح ضحية خاسرة. وتكون خسارته مضاعفة:

1--على المستوى السردي: حيث يفقد دوره كمتكلم أمام التاجر الذي لا يدعه يأخذ نفسه. فكأنما أصيب بحبسة. ومرد ذلك بطبيعة الحال طمعه في الحصول على وجبة دسمة.

2-- وعلى مستوى البناء، إذ بدل أن يوقع بالآخر تم الإيقاع به من حيث لم يحتسب. ليتعرض بذلك إلى مجموعة من التدهورات، أولها ضياع الوجبة. وثانيها رشق الأطفال له بالحجارة. وثالثها دخوله السجن. وبهذا ينتقل من دور المحتال إلى دور الضحية.

إن أهم ما يميز أبا الفتح الإسكندراني هو تحوله المستمر. نتعرف عليه شابا ويافعا وكهلا. حسن الهيئة. ورث الثياب. في أحوال عادية وأخرى مزرية.، جاد وساخر. إنه يعيش ازدواجية تناقضية: يحمل القيم التي تؤمن بها الجماعة، لكنه في الوقت نفسه يعيش حياة تبخسها هذه الجماعة. خطابه مزيج من اللغز والحوار والمعارضة. ينتظم نثرا وشعرا حاملا وجهات نظر مختلفة في الشعر والبلاغة والفلسفة وغيرها من الحقول المعرفية.

كما أنه شخصية هجينة. وهو ما نلمسه من خلال التناقض بين كينونته وظاهره. فهو عالم فصيح، ولكنه متشرد جوال يقوم بأرذل الأعمال وهو الكدية. وبطرق تخترقها الحيلة والتهريج. وذلك حاله مثلا في المقامة القردية. كما أنه أحيانا فقيه تقي وأخرى محتال كذاب، أو مغن في حان.

تبدو هجنته أيضا في جنونه وحكمته المتجاورين. وهو ما نقف عليه في المقامة المقامة المارستانية.

والمارستان هو فضاء إلى جانب فضاءات أخرى شعبية مثل الأسواق والمساجد والحمامات، التي علت فيها أصوات المجانيين الحكماء في الثقافة العربية.وهم عادة أصحاب آراء بليغة. لأن الجنون " حالة تهيئ قولا لكلام يشير إلى الحقائق ويكشف المغيب والمستور

وعادة ما يكون المجنون لسان حال الفئات المضطهدة وضمير العصر[31] وبهذا فدوره رمزي لأنه يجسد القيم المستبعدة والمسكوت عنها[32] فخطابه يستعمل للدفع بالصراع الاجتماعي إلى الأمام. لأنه إذا كان الجنون في اللغة يعني استتار العقل وخفاءه فإن "هذا العقل يعود ليظهر في سرعة بديهة بعض المجانين"[33]، وبراعتهم في القول وهذا ما تحققه المقامة المارسيتانية.

إذا كان النص لا يتحدث عن جنون أبي الفتح ولا يصفه، فإنه على العكس من ذلك يحين صحوه وقدرته على الكلام البليغ. فهو يناقش في أمور كلامية قد لا تتأتى للمجنون. ويكون خطابه حلبة لحضور كلام الآخر. وتلك سمة تكاد تلازم خطابه. إذ يمكننا أن نستنبط على الأقل طريقتين لاستحضار الآخر:

– طريقة مضاعفة هي التي تشتغل في المقامة الماريستانية حيث نجد صوته وصوت الآخر متلاحمين داخل حلبة ملفوظ واحد. يدخلان في حوار غير متكافئ، لأن خطاب أبي الفتح هو الذي يبدي وجهة نظره. بينما خطاب الآخر لا يأتي سوى كنتيجة يعمل أبو الفتح على دحضها، أو بلغة السميائيين على المصادقة عليها بالسلب. صوت الآخر هو المعتزلة في قضايا ترتبط بالخلق وأفعال الإنسان، يعمل أبو الفتح على بيان بطلانها فيأتي بأمثلة وحجج كثيرة على ذلك.

إنه يستفز الآخر. لكنه لا يدع له فرصة الجواب. ولا يكون خطابه بريئا، وإنما ذا قصد ووجهة نظر يسعى إلى الانتصار لها، ساعيا إلى فضح خطاب الآخر وهدمه والانتقاص منه.

– أما الطريقة الثانية فيتحقق فيها نصيا كمتكلم. يتلفظ في الملفوظ. ولكن الكلام ومحتواه يكون ذا مرجعية خارجية. وهذا ما يتجلى لنا انطلاقا من الأمثال والحكم التي يستحضرها للحديث عن موضوعه. في هذه الحالة نعاين توافقا بين خطاب الشخصية وخطاب الآخر. يختفي صوته ليكون صوت الآخر هو

الحاضر. ويستحضره في غالب الأحيان لبلاغته. أما السارد فيكون بذلك" صاحب وعظة وقول ونادرة"[34]

وعندما ينتفي الحوار في خطابه وتغيب ازدواجية الصوت، يلجأ إلى الإيحاء والاستعارة. وهو ما يمكن التأكد منه في المقامة الحمدانية. إذ يستعصى على عيسى بن هشام فهم خطابه عن الفرس. ولا يتمكن من التواصل معه إلا بعدما يسأله عن ألغاز خطابه. وفي أحيان أخرى يتم التواصل بينه وبين عيسى بن هشام، ومع ذلك يظل خطابه غير مباشر في دلالاته. لأنه يستعمل بعض المحسنات البديعية كالتشبيه. فيصبح الدينار رجلا والقطعة النقدية جارية.

وفي جميع الحالات تحتفظ المقامة بسمتين ملازمتين له: هما الفصاحة والحيلة. ما يجعله متكلما بامتياز داخل النص، ويجعل وظيفته الأساس التي لا تتخلص منها أية مقامة هي الإمتاع: إمتاع مخاطبه إما بغريب الأحداث أو غريب العبارة. فهو بذلك يسعى إلى خرق المتصل. فتصير غاية السرد وقصديته في طريقة قوله ما يقول. وبناء على ذلك تتأرجح الأقوال بين الإخبار، والتمرير. فالمتكلم لا يتحدث بشكل بريء ومحايد. أنه يفعل شيئا ما بقوله[35]: وهو التأثير في الآخر للوصول إلى موضوع القيمة. وبهذا يختلف خطابه عن خطاب عيسى ابن هشام الذي تأتي أقواله أحيانا سلسلة من الأسئلة والرغبات والوعود.

يوازي تنوع خطاب أبي الفتح تنوع في سجله اللغوي ورؤيته للعالم، إذ يوظف خطابه سجلات لغوية متعددة، نذكر منها ما يلي:

1- سجل مدحي يرتبط بالآخر والذات. إذ يشيد السارد بنفسه ومغامراته وجاهه[36]. إلا أن هذا الخطاب لا يكون دائما خالصا للمدح. بحيث يمتزج به التظلم والشكوى من الزمان وتقلباته[37]. لكن في الحالتين معا يكون السجل موجها لاستجداء العطاء سواء من الخليفة أو الجماعة التي يتوجه إليها.

2- وسجل ديني[38] يحاور فيه الأحاديث النبوية والقرآن. فلا يخرج خطابه عن التصور الديني.

3- سجل نقدي يتوزع بين الشعر والنثر. مقدما فيه وجهة نظره إما في الشاعر أو الناقد.

4- سجل فلسفي يعتمد المجادلة والحجاج من أجل انتقاد الآخر وتسفيه رأيه والانتصار للمواقف الذاتية.

5- سجل اجتماعي يرصد فيه بعض العادات، وأنماط الحياة الاجتماعية.

وتعكس هذه السجلات تنوعا وغنى في المواقف لأن السارد، كما بينا سابقا، يستحضر الآخر في خطابه ويحاوره. ويكون المتكلم بهذا محددا اجتماعيا. ولعل تعدد المتكلمين إحالة إلى تعدد المواقع الاجتماعية.وفي الانتقال من مستوى إلى آخر يتكشف المرئي والمعيش ويبتعد السرد عن مستواه الاسترجاعي القائم على الذاكرة إلى مستوى واقعي يتابع فيه المتلقي الحدث وكأنه يعايشه. وهذا ما يحدد طبيعة الكلام: فالكلام ينقل ويصف ويكثف ويوحي بدلات يجتهد [39] المتلقي في نثرها.

خاتمة

لا ندعي استنفاذ كل القضايا التي تتصل بالمتكلم في مقامات بديع الزمان الهمذاني. فذخيرة علمية بهذا المستوى من البلاغة والفصاحة والتركيب والتعدد الصوتي واللغوي، تستدعي دراسة أطول وأكثر تفصيلا، لا يسعها المقام هاهنا.لكننا نعتقد أن عملنا هذا،وهو مدخل لدراسة المتكلم، أتاح لنا الوصول إلى بعض النتائج الأولية:

أولها أن المقامة بنيات مختلفة. وان البنية السردية فيها مركبة. إذ نلحظ تعددا صوتيا لتعدد المتكلمين. وقد اعتبرنا المتكلم كل شخصية لها صوتها داخل المقامة. لكننا ركزنا على محافل ثلاثة هي السارد المتباين حكائيا والساردين المتماثلين حكائيا. وقد تبين لنا تفاوت أهمية هذه المحافل.

يفسر التعدد السردي في هذه المقامات هاجس فني يرتبط بواقع المقامة كجنس أدبي.

فالمقامات جاءت شكلا فنيا جديدا. يعترف معظم النقاد بأسبقية بديع الزمان الهمذاني إليها. وحتى من يجد لها أثرا في كتابات سابقة أو معاصرة لها، يقر بدور بديع الزمان الهمذاني في تأصيل هذا الجنس، وبقدرته الفنية في صياغته كفن أصبح له امتداد وشأو بعده. بناء على ذلك رسخت المقامة بنية سردية ثلاثية تعتمد السارد المتباين حكائيا باعتباره مدخلا إلى عالم المقامة ومحاكاة لبنية سردية متواترة في السرد العربي القديم والساردين المتماثلين حكائيا. عاكسين تنوعا صوتيا يغني البنية السردية، ويحقق ثراها الفني.

ولا يقف تنوع البنية السردية ومستوياتها عند الجانب الفني. فالتعدد له دور على مستوى بناء المقامة إذ يخلق لها مسارين: الأول يجعل منها شكلا يتكرر وهذا ما بيناه انطلاقا من تناوب السرد بين عيسى بن هشام وأبي الفتح. فالمقامة فضلا عن كونها في بنيتها تتأسس على التنقل ولحظة التعرف كما يؤكد كيليطو، نعتقد أنها تقوم أيضا على هذا التراوح بين محكي ثابت ومتكرر يرتبط بعيسى بن هشام ومحكي متغير يرتبط بأبي الفتح أو شخصية أخرى.

أما المسار الثاني فيجعل المقامات مغيارات متعددة، تختلف في عناصر بنائها عن البنية التقليدية المتواترة. وهذا ما تأكد انطلاقا من اختفاء أبي الفتح من المقامة وقيام عيسى بن هشام بدوري السرد والبطولة.

يسم التعدد السردي المقامة بنوع من الموضوعية التي تنبأ بتكافؤ الأصوات السردية. فكل سارد يحكي ما يعرفه أو ما سمعه أو ما يتصل به. بغية إعطاء مصداقية للمحكي. وهو ما يترسخ انطلاقا من تواتر فضاءات وشخصيات مرجعية تضفي نوعا من الواقعية على المقامة.

إن تركيزنا على الساردين الأساسين جعلنا نتبين ما يسم خطابهما من خصائص تتقاطع احيانا وتختلف أخرى.

يمثل التقاطع على مستوى السجل اللغوي المتداول لديهما هو سجل بليغ، فصيح منتق بعناية بالغة. وذلك توافقا مع وضعيهما الفكري. فكلاهما عالم متفقه في اللغة وباقي العلوم. كما أنه سجل يمتح من حقول معرفية مختلفة، فيها الشعر والنقد والفلسفة. ومن أساليب بلاغية وأسلوبية مختلفة. كما يتراوح خطاباهما أيضا بين الجد والهزل. وهذا طبيعي في نصوص تسعى إلى انتقاد سياق ثقافي واجتماعي.

تبين لنا التقاطع انطلاقا من الحوار المتبادل بينهما.وهو حوار كما بينا سابقا يقوم عادة على السؤال. إذ نجد عيسى بن هشام يستفسر أبا الفتح عن أمور عدة. إما فكرية تتعلق بالنقد والشعر أو اجتماعية كالاستفسار عن شخصية معينة.

لكن الساردين يختلفان في أشياء كثيرة أهمها. القوة السردية ذلك أن عيسى بن هشام بما له من وظائف سردية متعددة يجعل أبا الفتح دونه منزلة على هذا المستوى. وهذا ما تؤكده المقامات التي يستغني فيها عيسى بن هشام عن أبي الفتح. كما أن أبا الفتح لا يدخل عالم السرد إلا بفضل عيسى ابن هشام. ولذلك يتوزع حضوره بين مسارين مسار يعلنه حاضرا منذ بداية المقامة معروفا لدى المتلقي وآخر يؤخر ظهوره إلى منتصف المقامة والتعرف عليه إلى نهايتها.

كما نلاحظ أن خطاب عيسى بن هشام، على الرغم مما تواتر فيه من مدح وثناء على أبي الفتح لا يخلوا من انتقاد وسخرية منه. إلا أن السخرية من أبي الفتح ليست غاية في حد ذاتها، وإنما وسيلة لانتقاد السياق الاجتماعي العام.

يكون مع ذلك خطاب أبي الفتح مكثفا مشحونا بمواقف وإضاءات إيديولوجية. فخطابه كما بينا سابقا غير محايد.إنه حلبة لصراع أصوات مختلفة. لكن الصراع بين الأصوات لا يكون متكافئا في بعض الأحيان، لأن

رأي أبي الفتح هو الذي ينتصر. لأنه مشحون بالانتقاص والسخرية. وفي إطار خطاب أبي الفتح تتضح كما اشرنا سياقات مختلفة. فكرية ونقدية وشعرية واجتماعية. ولعل هذا ما يجعل سله اللغوي مختلفا. وخطابه ولغته هجينة.

خاتمة: لا ندعي القول إننا ألممنا بجميع خصائص المتكلم في مقامات بديع الزمان الهمذاني. فعملنا مدخل لدراسة هذا المحفل. لكن ذلك لا يمنعنا من تسجيل بعض الخلاصات التي توصل إليها بحثنا في هذا المحفل

اعتبرنا المتكلم كل شخصية لها صوتها داخل المقامة.وبناء على ذلك فإن المقامة نص يحفل بالتعدد الصوتي.لكننا ارتأينا التركيز على محافل ثلاثة هي السارد المتباين حكائيا والساردين المتماثلين حكائيا وهما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندري تبين لنا تفاوت أهمية هذه المحافل داخل المقامات. فإذا كان السارد الأول مجرد مدخل تمهيدي إلى عالم الحكاية يتم بواسطته ربط الاتصال مع المتلقي، فإن الساردين من الدرجة الثانية لا يمكن الاستغناء عنهما لوظائفهما البنيوية والدلالية

تمثل الوظيفة البنيوية في كون المقامة لا تتحقق إلا بوجود هذين الساردين في معظم الأحيان. فالمقامة فضلا عن كونها في بنيتها تتأسس على لحظة التعرف كما يؤكد كيليطو نعتقد أنها تقوم أيضا على هذا التراوح بين محكي ثابت ومتكرر يرتبط بعيسى ابن هشام ومحكي متغير يرتبط بأبي الفتح أو شخصية أخرى.

إن المتكلم هو شخصية اجتماعية. ولغته هي لغة اجتماعية لها إضاءة إديولوجية خطابه مرجعي يحيل على قضايا فكرية وأدبية وعلى عادات وتقاليد وعلى شخصيات مرجعية لها وجود فعلي. وبالتالي فسرده لا يكون محايدا لذلك وجدنا خطابه مزيجا من خطاب الذات والآخر حيث يستحضر الآخر شعرا ومثلا وحكمة ورأيا. ويسعى المتكلم دوما لأن يتخذ موقفا ويصدر رأيا وهو ما نجده مثلا في المقامة الجاحظية حيث ينتقد أبو الفتح الجاحظ وطريقته في الكتابة وفي الوقت نفيه يعمل على تثمين خطابه وما يسمه من خصائص أسلوبة تفتقدها الكتابة الجاحظية وهي المور ذاتها التي تتكرر في المقامة

المرستانية حيث يتم انتقاد المعتزلة وأفكارهم، ص 264 مصطفى الشكعة متعددة تتحدد وفق مستويات مختلفة فنية وبنيوية ودلالية.

إن تعدد المستويات السردية هو أيضا تعدد في طرق السرد. وقد بينا كيف أن تنوع هذه الطرق على الرغم من اختلاف طبيعتها هي التي تكون مسؤولة عن نمو السرد وتطوره مثل التنقل والتضخيم والإقناع.

الهوامش

1- يعتمد كيليطو في تعريف المقامة على التنقل والتعرف كلحظيتين بيويتين مميزتين للمقامة .لكن لحظة التعرف لا تتحقق في جميع المقامات.

2- نشير هنا إلى المقامة الموصلية. والمقامة البشرية والمقامة الأسدية.

3- المقامة العراقية والمقامة الشعرية.

4- المقامة الوعظية والمقامة الاهوازية

5- Greimas : Du sens .Seuil.1970 .P :130

6- امبرتوإيكو : **ست نزهات في غابة السرد** . ترجمة سعيد بنكراد. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. ط الأولى. 2005. ص 85.

7- عبد الله إبراهيم : **السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي**. بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط .الثانية 2000 .ص.221.

8- G.Genette **: Figures III** Paris.seuil 1972.p238-239

9- Miek Bal :**Narratologie** .Essais sur la signification narrative dans quatre romans modernes ..Editions Kelinksieck .p25

10- عبد الله إبراهيم: مرجع سبق ذكره. ص 228.

11- عبد الفتاح كيليطو: المقامات /السرد والأنساق الثقافية. ترجمة عبد الكبير الشرقاوي. الدار البيضاء. دار توبقال ط.2. 2001. ص 17

12- نفسه ص 17

13- نفسه ص : 60

14- نفسه .ص60

15- P.Hamon Pour un statut sémiologique du personnage.In **Poétique du récit** .Seuil Paris. 1977p

16- بديع الزمان الهمذاني : المقامة

17- Todorov :les catégories du récit. **In Communicatio n 8.**seuil 1966p

18- Kaite Hamburger : Logique des genres littéraires ..Traduit de l'allemand par Pierre Cadiot .collection Poétique éditions du Seuil, Paris .,p : 275

19- Said bengrad : la narrativité Dans les séances de hamadani .Thèse de doctorat de 3em cycle .sous la direction de Mme Nada tomich .la sorbonne nouvelle Paris III 1984.p

20- بول ريكور : **نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى** .ترجمة سعيد الغانمي المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط.1 ،2003.ص40

21- عبد الفتاح كيليطو : مرجع سبق ذكره

22- Said ben grad p99
23- G.Gerard Genette
24- Gérard Genette Figure II éditions du seuil Paris. 1969.p 196
25- بديع الزمان الهمذاني : المقامة الصيرمية
26 - P .Philip Hamon : Pour un statut sémiologique du personnage
27- باختين الخطاب الروائي
28- بديع الزمان الهمذاني : المقامة القريدة
29- bengrade
30- بول ريكور نظرية التأويل
الخطاب وفائض المعنى ص 40
31- أحمد الشايب
32- مدارات الشايب 2003.
33- أحمد الشايب ص.2003
34- محسن جاسم الموسوي : سرديات العصر العربي الإسلامي ص 60
35- بول ريكور 41
36- المقامة السجستانية
37- المقامة الجرجانية
38- المقامة الوعضية والمقامة الهوازية
39- يمنى العيد: الراوي الموقع والشكل ص 117.